إحياء فقه الدعوة

الاستدراكُ الواعي

محمد أحمد الراشد

الأمة
دار الأمة للنشر والتوزيع

إحياء فقه الدعوة

سلسلة

استراتيجيات الحركة الحيوية

الرسالة التاسعة

الاستدراك الواعي

عودة إلى موضوع الإصلاح بشواهد أخرى جديدة
وفحص نافذ للواقع الاجتماعي من زاوية إيمانية
مع كشف الأخلاقيات اللازمة لممارسته
وبيان مكانة التنظير وسعة الخيال في التماس العلاج
بلغة شعرية رمزية وتشبيهات إبداعية



بسم الله الرحمن الرحيم

((مغزى الغلاف))

أربعةُ أطرٍ للاستدراك الإيماني على خلل المجتمع:

معالمُ أخلاقيةٌ تهبه العفاف

ولمساتٌ أدبيةٌ توفر له العاطفة

وموجةُ خيالٍ عريضةٌ مُرْسَلة

وإطارُ تنظيرٍ يحدد الأبعاد والزوايا

فإذا كان ضحى الإصلاح ... وارتفعت شموسُه

وبانَ الفضاءُ المُشرق

انعكست على الخطوط التربوية والرقابية ومضات الأنوار

فيكون الحشدُ الواضح الجميل

الرياض

المملكة العربية السعودية

الطبعة الأولى

١٤٢٩هـ - ٢٠٠٨م

((الغلاف من فن الراشد))






٩ الاستدراك الواعي

□□ حين استطردت الفتوح الإسلامية في عهد الراشدين : وضحت الحاجة إلى تأسيسات إدارية وولايات مدنية ، بها تتم سياسة الناس ، وتبرز سلطة دولة الإيمان ، فصار انتقاء رجال من المجاهدين ، في تجربة جديدة لم تسبقها خبرة ، ولكن الذي كان يُقلق أمراء المؤمنين رضي الله عنهم ما كان هو هذا الضَعف في الخبرة ، فإنها توشك أن تكمل بالممارسة ، وعَبر بعض الخطأ كان يمكن الوصول إلى الصواب ، وإنما كان التحوّل النفسي المصاحب للولاية والمنصب هو الذي يخيف ، وخشي الأمراء أن تتحول النفوس إلى بطر وكبرياء ، بهما يكون تمرير بعض الظلم ، لما عرفوه من مجمل علم العقيدة والتوحيد من أن النفس تأمر بالسوء ، وأن الشيطان يغري.

● بمثل هذا الإحساس طفق عمر بن الخطاب يوصي عُتبة بن غزوان ، رضي الله عنهما ، لما اختاره عاملاً على البصرة ، قائلاً له : (لقد أصبحت أميراً تقول فيُسمع لك ، وتأمر فينفذُ أمرُك ، فيالها نعمةً إن لم ترفعك فوق قدرك ، وتُطغيك على من دونك ، فاحترس من النعمة أشدَّ من احتراسك من المصيبة).[١]

● والذي لا يغوص إلى أعماق هذه الوصية يحسبها مجرَّد موعظة أخلاقية مقصدها تصفية يوميات الأداء من الشوائب ، ولكن الفهم والتأمل يرفعها إلى مرتبة القواعد الفقهية والموازين الإيمانية التي تكفل استقامة الحياة ، وهي مطالعة موجزة لعموم الاعتبارات الشرعية في فهم أسرار حركة الحياة ، ثم هي عند الفقهاء الذين استرسلوا مع الفقه العمري : محور النمط الساري في كل مجتمع ولدى كل جيل في تبادل المواقع والتأثير والسلطة والمكانة ، ومفتاح التبدلات والخفض والرفع ، وقضية (النعمة) عندهم في كل أشكالها إنما هي (نعمة ربانية) سواء وردت في شكل منصب وتمكين ، أو مال ، أو فن وخبرة معينة ، أو رئاسة عرفية ، أو حيازة علم شرعي أو مدني ، أو حصول جاه ، نزولاً إلى جمال الخلقة

وسـواء الـصحة البدنيـة ، وبـذلك فإنهـا تحتـاج إلى (شـكر الله الـذي أنعمهـا) والاعتراف له بالفضل واستعمالها في وجه شـرعي نـافع ، فمَـن شَـكرَ : زاده الله توفيقاً ، ومن أساء وضعها في مكانها الذي يليق : خذله الله ونزعها منه .

● وذلك الذي جَعَل قاضي قضاة الشام تاج الدين السُبكي الـشافعي المتوفى سنة ٧٧١هـ يقول :

(وقد اعتبرتُ ـ ولا ينبئك مثل خبير ـ فما وجدتُ ، ولا رأيت ، ولا سمعـتُ بسلطان ، ولا نائب سلطان ، ولا أمير ، ولا حاجب ، ولا صاحب شـرطة يُلقـي الأمور إلى الشرع : إلاّ وينجو بنفسه من مصائب هذه الدنيا ، وتكون مصيبته أبداً أخفّ من مصيبة غيره ، وأيامه أصلح ، وأكثر أمناً وطمأنينة ، وأقل مفاسد.

وأنت إذا شئت فانظر تواريخ الملوك والأمراء العـادلين ، والظـالمين ، وانظـر : أيّ الدولتين أكثر طمأنينة وأطول أياماً؟

وكذلك اعتبرتُ فلم أر ولم أجد من يظن أنه يُصلح الدنيا بعقله ، ويدبّر البلاد برأيه وسياسته ، ويتعدى حدود الله تعالى وزواجره ، إلاّ وكانت عاقبته وخيمـة ، وأيامه منغصة منكّدة ، وعيشه قلقاً ، وتفتح عليه أبواب الشرور ، ويتـسع الخـرق على الواقع ، فلا يسدّ ثُلمة إلاّ وتنفتح ثلمات ، ولا يرفع فتنـة إلاّ وينـشأ بعـدها فتن كثيرة.)[٢] .

وليس السُبكي هو أول من قال ذلك ، ولا هو الأخير ، لكنه هو الوحيـد مـن بين الفقهاء الذي طوّر ملاحظته هذه إلى كتاب كامل ، واستخرج تأصيلاً متوافقاً مع طرائق الفقه الشرعي يشرح مـن خلالـه (ظـاهرة دوام الـنِعَم وإبـادة الـنِقَم) بالطاعات والشكر لله وحسن النية والتزام الأخلاق والعدل ، وأنتج كتاباً كـاملاً يدور حول هذه المعاني سماه (معيد النِعَم ومبيد النِقَم) هـو في الحقيقـة حلقـة في علم استراتيجيات الحركة الحيوية ، وبه استطاع تطوير الموعظة إلى ظاهرة ، ثم إلى نظرية متكاملة.

□ وثيقة فقهية جديرة السَبك في بيان معالم الإصلاح

□ والقراءة المتأنية الفاحصة لكتاب (معيد النعم) تبديه كتقرير اجتماعي عام فيه وصف دقيق لجميع أجزاء المجتمع في القرن الثامن الهجري ، وما كانت عليه أخلاق وتصرفات السلاطين والوزراء وأمراء الجيش والقضاء والعلماء والوعاظ والأطباء والتجار وأرباب المهن كلها ، نزولاً إلى الحراس والجند والخدم والباعة ، وقد رصد من خلال هذا الاستعراض الشامل المخالفات الشرعية التي تورط فيها كل صنف ، وأدار فقه تقريره على قاعدة ارتفاع البركة عن عمل كل مسيء ، ومحو النعمة الربانية التي يهبها الله له ، بسبب الإساءة التي يرتكبها ، وحلول نقمة بدلها ، هي عقوبة عادلة تحملها الأقدار ، جزاءاً وفاقاً ، وعدلاً ، لذلك يعظ هؤلاء ويطلب منهم التوبة والإحسان والاستدراك ، ولكن وصوله إلى هذه الموعظة ألجأه إلى فضح معايب المجتمع وأفراده ، وتقديم صورة بشعة تتستر أو تجهر ، وتقف موازية لصور الصلاح والإيمان.

والتصور الذي قام عندي : أن (مقدمة ابن خلدون) إن كانت تضع نظرية شمولية لحركة المجتمع وقواعد كلية وموازين عامة : فإن تقرير (معيد النعم) يضع ما يكملها من الرصد الجزئي والملاحظات التفصيلية التنفيذية لتصويب حركة المجتمع ، ولذلك هما في نظري كتابان متوازيان متناظران ، ويمكن أن يكونا معاً ، ويتلازم وتكامل : الطرف الأول في معادلة من معادلات حركة الحياة تكشف السبيل العملي للتعامل مع الانحرافات الاجتماعية ، ومع خلل النفوس الإنسانية في أشكالها العديدة ، وهذا الطرف الأول يقود حتماً إلى خطوة واقعية تعتمد إصلاح الخلل والاعوجاج عبر وسائل الوعظ والرقابة والتربية ، ويشكل هذا رقماً آخر وطرفاً ثانياً في المعادلة يزيد في وضوح تركيبها وتسلسل نسقها ، وهذا الإصلاح هو في الحقيقة (الاستدراك الدعوي) الذي يلزم أن يكافئ وجود الانحراف وبطر الناس وجحدهم للنعم الربانية.

● فالذي أستطيع أن أستوعبه من وراء تقرير السبكي : أنه ، أو ما يماثله من الكلام الذي تردد في نفوس بعض القادة من أهل الإيمان والفقه : كان هو (الخلفية) التي ارتكز عليها المفهوم الدعوي حين طرح (وجوب العمل الدعوي) كحل للأزمة ، واستنتج لزوم بناء كيان تربوي اجتماعي دعوي ، يبشر وينذر من جهة ، ويربي وينظم المستجيب والتائب ، ويحاول الرقابة على المعاند ، فلولا وجود التفريط وتضييع حقوق الله والعدوان على حقوق المستضعفين وعامة الناس لما انحدر المجتمع إلى الهاوية ، والفرد يسحقه التيار ، ويتطاول عليه القوي ، فيكون الحل المنطقي : وجود كتلة جماعية تطالب بالحقوق وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر بكل أشكاله ، لا منكر السلطان فقط ، بل حتى منكر البائع والتاجر والطبيب والمعلم ومنكرات أصحاب المهن كلها ، وتلك هي المهمة الدعوية.

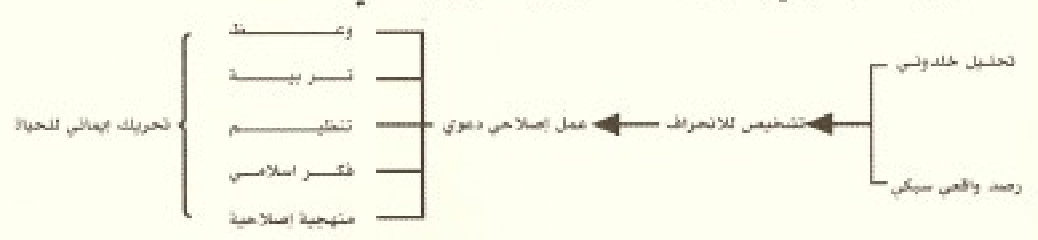
● والذي يلفت النظر أن كتاب (معيد النعم) لم ينل الاهتمام اللائق به من قبل المفكرين الإسلاميين المعاصرين ، بالرغم من أنه يقوم بتكميل الجانب التنفيذي لمقدمة ابن خلدون فيما أرى ، ويأت بتفصيل النظرية الأخلاقية الإيمانية اللازمة لحركة المجتمع في نقلاته اليومية وانسيابها العادي ، وسبب ذلك عندي قلة الإبداع وغلبة التقليد والمحاكاة ، فلأن مقدمة ابن خلدون اعتنى بها المستشرقون وعلماء الاجتماع : اقترب منها المفكرون ، وساعدت على ذلك الشخصية التاريخية لابن خلدون وليست شخصيته الفقهية ، ولكن تقرير (معيد النعم) إيماني الأساس ، ومن قول فقيه محض ، فلم ينتبه له المستشرقون ، فتابعهم أهل الفكر الإسلامي في الإهمال ، وذلك ضَعفٌ في النظرة الذاتية وفي الطبيعة الاجتهادية .

● وعلى كلٍ : فإن المعادلة التي تطلقها إعادة النعم بمظاهرة المقدمة : ليست جديدة ، ولا هي نتاج هذه المصادر فقط ، وإنما توفرها تحليلات شرعية كثيرة ، ونظرات اجتماعية وأخلاقية ، ولكن ذلك لا يقلل من أهميتها في أنها (شاهد) قوي واضح على صحة وصواب هذه المعادلة العتيدة الأساسية في عملية تنظير العمل الدعوي .

● ثم إنها تقدم إضافات مهمة في المعادلة ، فلئن كان الجانب الأخلاقي التنفيذي الذي تكلم عنه السبكي مفهوماً ، وأدلته متوفرة في فروع الفقه والعقيدة : فإن الجانب التحليلي عند ابن خلدون يحتاج أنواعاً من الشرح والتفهيم والنقد، والفكر هو الذي يوفر ذلك ، فيكون لزاماً أن يتفرع من سياق المعادلة شرط التداول الفكري في العمل الدعوي ، وأن يكون تأسيس الفكر وتنميته وتجديده الدائم خصلة في المنهجية الدعوية العامة .

● كذلك فإن السبكي لم يبين انحرافات أصناف الناس فقط ، وإنما قرن ذلك بنظرة نقدية تصويبية إرشادية أوضح من خلالها الصفات الإيجابية التي يفترضها الشرع والإيمان لكل صنف من الرؤساء والموظفين ورجال العلم وأرباب المهن والصنائع والخدمات ، فجاءت مجموعة المواصفات المتناثرة خلال كتابه كتلة منسجمة متراصة تشرح التصور الإصلاحي الاجتماعي السياسي منظوراً بعين فقهية عقيدية ، وهذه الكتلة تمثل إضافة أخرى لأصل المعادلة يمكن للدعوات المعاصرة أن تتخذها مرجعاً تتوفر فيه الأصالة وأنفاس القضاء وملامح التجربة ، استناداً إلى مكانة السبكي .

● وبذلك يستوي سياق المعادلة وفق التكوين الآتي :



□ تكامل المعادلات التحريكية

□ وهذه الملاحظات تمنحنا مناسبة للتنبيه إلى أن (نوع القراءة) للفقه والتاريخ هي التي تتيح (نوع الفهم) للتوجهات الخططية الكامنة فيهما ، فلأن قراءتنا

دعوية ومستندة إلى شيء من المعاناة الذاتية ودروس التجريب الواقعي : انفتحت أمامنا بسهولة أنساق معادلات تبني أركان الفقه الدعوي وتحدد الأبعاد الاستراتيجية لتحريك الحياة ، وتجاوزنا مجرد التأنيب الوعظي والنمط التقليدي لتلاومات المؤمنين وإبداء الأسف والتأوه ، ووضعتنا طريقتنا وجهاً لوجه أمام منظور إصلاحي يرى في الشطط والخلل تمثيلاً لطبيعة إنسانية ضعيفة محتومة علينا ، لذلك لم نقف عندها طويلاً ، وإنما حصل انتقال سريع إلى استشعار واجب الاستدراك الإصلاحي ، فالمعادلة السُبكية تكاملت مع التحليلات الخلدونية لإنتاج معادلة متطورة أكثر وأقرب إلى الوضوح ، وعندنا أن نهايات الكلام لا تنسينا أوائله ، ولذلك يمكن ، وبلمسة بسيطة : أن نقرن هذه المعادلة المتطورة بمعادلة أخرى جُوينية استقلت باسم معادلة (الفقه اللاهب) المودع في كتاب (الغياثي) ، أقرت تغيير الضعيف العاجز المضياع لمصالح الأمة ، وفسحت المجال أمام القوي الأمين الثقة أن يلجأ إل استثناء عندما تبدو الضرورة ، والناتج الثلاثي من هذه المعادلات المعاضدة يكشف عن جانب من عملية تتابع الوضوح التدريجي في تكوين فقه الدعوة وتحريك الحياة ووعي ولادة ونمو الحيثيات التخطيطية ، وكل ذلك إنما يكون بطريقة أصيلة اجتهادية مستوحاة مباشرة من أعماق الذخائر الشرعية ، وترعاها الإحساسات النفسية السوية السليمة في دواخل قلوب الفقهاء ، بحيث يتشكل من ذلك علم إسلامي أصيل متناسق الأطراف وموافق لعقيدة التوحيد وأحكام الحلال والحرام ، وليس مجرد ركام من الأجزاء المتنافرة التي يجمعها أغلب من يتداول التخطيط والإداريات اليوم ويلتقطونها من كتابات الغربيين دونما نظرة ناقدة أو منزع تأصيلي .

☐ حين يفقد المرء الإرادة ... يجرفه الزحام

☐ وقد ألهمنا النظر العلمي الثقافي طريقة في حسن الظن بالناس ، وقلة المعاتبة لهم ، والميل إلى التأويل الجميل لأخطائهم ، واللجوء إلى طريقة الإهابة بهم أن

يفعلوا الخير مهما غاصت أقدامهم في وحول المعاصي ، فذلك هو المنزع الدعوي الصحيح ، وتؤيده أنماط التوبة ، ونصف القرآن تذكير بالتوبة والمغفرة ، وأن الله يحبها أن تسود في تعاملات عباده كما أحبها سبحانه لنفسه .

وسبب ذلك لمن يخرج من النظر الفردي إلى نظر جماعي دعوي يرى فيه الخلل في صورة (ظاهرة) من الظواهر الاجتماعية وليس مجرد هفوة: أن أكثر الناس فيهم قابلية التقليد والمحاكاة والتبعية للأقوى ولمن تكون منه مبادأة ، وليست عندهم استقلالية ولا طبائع التأني والمحاكمة والاختيار والموازنة ، بل فيهم مجازفة وإسراع إلى المحاكاة ، وذلك هو الذي يوقعهم في المعاصي إذا وُجِدَ كبير يعلمهم السحر ، أو رأوا تياراً عامراً ، فالتيار وصوته الهادر وحجمه الضخم يجعل أحدَهم جبرياً ملغياً لخصوصيته ، متنازلاً عنها ، ومانحاً قياده لهذا التيار .

● وقد أجاد د. عفيف البهنسي تصوير هذا المشهد ، فقال :[٣]

كبحتُ نفسي فجأة ، حشرت بالمسيرة

كقطرةٍ في موجةٍ ، تلاطمتْ كسيرة

فهو أسير ، محشور بالرغم من استقلاليته المظنونة ، وهو ليس أكثر من قطرة منكسرة مهملة في الموجة العاتية التي انجرف معها دون أن يدري القصد والوجهة والخطة والنوايا ، والكثرة غلبت شجاعته الذاتية .

لذلك يُشفق (النظر الدعوي) و(التقدير التربوي) و(التفسير الإيماني) على هؤلاء الأسرى ، وعلى انكسارات نفوسهم ، ويحصل إدراك للإكراه الذي تعرضوا له ، وزخم الدعاية والإعلام ، وأثر المعادلات الفسوقية التي أدت إلى تحريك الحياة نحو الوجهة المنحرفة التي وجدوا أنفسهم ضائعة فيها .

وهذه الشفقة يجب أن تتطور إلى انتشال وإنقاذ.

□ لكن الإفاقة أقرب ... والفِطرة أنفذ

□ لكنْ لأن أكثر العصاة لم ينحرفوا عن عمد ، بل جرفهم التيار : فإنّ عملية إنقاذهم لا تستدعي جهداً كثيفاً ، وإنما هي زجرة واحدة فتكون الانتباهة ، ويفيق ناس عددهم كثير ، لأن المرء ملتصق بذاته مهما تعرض لغش ، وما هو بمستقل عنها تماماً ، بل غاية ما هنالك أنها تبتعد عنه قليلاً ، فيُراد له مدّ اليد لتناوشها ، والفِطرة لها جذرٌ قوي يعيد النمو إذا قطع مجتثٌ ساقها .

● إنّ أحداً لا يستطيع الانفكاك كُليةً عن ذاته ، بل هو مرتهَن لديها . إنما له أن يتوهم الانفصال ، فيفعل ما فعله (عبده الشنهوري)...[٤]

كِتبتْ اسمي على البحر ...

يـمكن بغيري يُسافر

ويِعيش حياته بلا قَهر ...

ويـلاقي دافـي المشاعر

فهو يكتب اسمه على صفحة الماء ، لعل اسمَه يسافر بعد يأسه هو .

وذلك المحال ، بل هو قَدَره المكتوب ملتصق بـه ، ولا مفـرّ ، ولا وكالـة ، ولا استقالة .

وليس أمامه إلاّ أنْ يدفع قَدَر الرَهَق بقدر الإصلاح وتحريك الحياة ..

وهي مسؤولية شخصية لازمة ، وذمّة محمولة ..

ولكن الإنسان ينفعه أحياناً أن يتصرف بشخصيتين .. وأن يتوهم ..

والوهم علاجٌ حين تتراكم الهموم وتكون ثقيلة ..

● ومنه يستطيع أن ينتقل بسرعة إلى حالة الرفض والتصميم ..

أو حالة إمرار وتيرة الأمل .. والإغراء لغيره أن يقتفي ..

كما فعل (موفق المحاميد) عندما وقف (عند مفترق الخريف) وراح ينادي :

(عند ذلك المفترق : لن أقف كصوت يصرخ في الفضاء ..

ولن أ سمح لقطار الزمن الآتي أن يأخذ مني في محطته الأخيرة :
ربيع القلب ، وصبوة الروح ، وسلة الأحلام الجميلة ...
عند ذلك المفترق .. سأكون أنا ... أنا من يبدأ ... من جديد .) (٥)
فهذه أملاكه التي يحرص على أن يستمتع بنعيمها :
قلب .. وروح .. وأحلام .. وهي (الحياة الدافقة) حين تجتمع ..
ولئن سبق أن خدعه أحد فأرهقه وأخذ منه شطراً ..
فإنه اليوم يقظ .. وسيبدأ من جديد قصةً تستدرك ..
● فلما علم (محمد خالد الخضر) بخبر هذه الإفاقة الواعية ..
أو رأى مثيلات لها .. وكأن الظرف قد أنضجها معاً ..
مالَ إلى إقدام أبعد .. وصراحة أجدى .. وتمّم الرسالة ...
(اغتنم هذه الشروق .. وأسرج الخيل التي نامت طويلاً ..
واقرأ حكايات التخلّف .. حتى تستردّ نقاءك الغافي .. فالعزة لا تزول ..
فاقرأ على دمك الأماني .. سوف تبدأ الحكاية من جديد .. اقرأ قصيدتي الأولى ..
وسافر في حروفي .) (٦).
بل كلنا نسمي باسم الله ، ونسرج الخيل ، ونسافر في حروف قصائد تحريك الحياة ، ونبدأ الإصلاح ...

□ القلب يقود الانقلاب

□ لكن الخطوة الأولى في طريق الإصلاح العام : إصلاح قلب المصلح ، واسترجاع نبضه ، وإنما بيد المصلح من ذلك العزمة والنية والدعاء ، وأما حقيقة التغيير فمن الله تعالى ، إن يشأ إسبال التوفيق على عبده ..
● فالقلوب تهيم أحياناً ، وتدخل المتاهة ...
ولكن نعالجها على طريقة (محمد أبي دومة) المتأنية ... (٧)
(عُذراً .. أفســد الدهر قلبك ...!

لم يعد عندنا لك في جُراب الطبابة .. طب ..
سَل أيَّ عابر .. أين تُباع القلوب؟ أو أين يقام مزاد القلوب ..
زن .. وانتق .. فالشراء خداع ..
أي القلوب النبيل ..؟ أي القلوب الجليل ..؟ قلبك يدري شوؤنك..!!
فاحفظه فيك .... واحفظه لك ..! فلو أنت بدّلته ... كيف تضمنه ... طيبا ..؟
تأنَّ ... سيطيبه الله لك ...! يغسله بالرضا .. ويشرحه بالصفاء المنقى ....!).

● وهذا القلب المطمئن بالرضا هو المرشح لالتزام أخلاقي صارم يجعله فن التخطيط الدعوي والدرس التجريبي محور العملية الإصلاحية الاستدراكية ..

وذلك هو أسلوبٌ ثانٍ لبائع البساطة وناثر العواطف (عبده الشنهوري)[8] ...

احضـــن شـتاية .. و ادفـيّه
و استنى ع البُعْد .. صيفي
و اخلص لخلّي .. و ادوب فيه
و اتعشى من بعد .. ضيفي

فهذا الشتاء البارد يلسعني .. لكني أحسن إليه .. وأمنحهُ الدفء ..
واتعشى من بعد ضيفي .. والمقهورين .. والمستضعفين .. وأتبنى الغلابة ..
وخُطة (تحريك الحياة) ... تستدعي هذا الإيثار ..
ولا بد من تضحية .. وصبر .. وممارسة لأخلاق التحريك ..
ونفضات النقلات .. تبعثها قيادة .. لها ولاء .. تجمعه أعمال نماء ..!
والداعية .. الذي يظن نفسه صغيراً .. هو (نقطة قيادة) في حركة الحياة ..!

● هذا الحنان : صادفَ في الخطة الإصلاحية ترحيباً وتأويلاً يطوره إلى ميزان وقاعدة فقهية توصي المصلح والمربي بالرفق والميل إلى الأيسر الأسهل إذا نهى عن منكرٍ أو رأى زجر مسرف ، وفي هذا السياق : أنكرَ التاج السبكي على (طائفة تصلّبت في أمر دينها ، فجزاها الله تعالى خيراً ، تنكر المنكر وتشدد فيه ، وتأخذ

بالأغلظ ، وتتوقى مظان التهم ، غير أنها تبالغ ، فلا تذكر لضعفة الإيمان من الأمراء والعوام إلا أغلظ المذاهب ، فيؤدي ذلك إلى عدم انقيادهم وسرعة نفورهم .

فمن حق هذه الطائفة الملاطفة ، وتسهيل ما في تسهيله فائدة لمثل هؤلاء إلى الخير إذا كان الشرع قد جعل لتسهيله طريقاً ، كما أن من حقها التشديد فيما ترى أن في تسهيله ما يؤدي إلى ارتكاب شيء من محرمات الله تعالى .) [٩] .

في نسبية صحيحة التخريج يقرها الفقه ثم العقل ، ويشهد لها التجريب الدعوي المتراكم في كل البلدان وجميع الأصعدة وعلى مدى أجيال عديدة .

● **بل هذا النمط الرفيق يتجاوز أن يكون وصية فقهية ومعنى يستقر في قلوب المؤمنين ، إلى أن يكون عُرفاً عالمياً وحكمة سائرة بين الشعوب ، وذلك لأن الفِطرة لها بقايا باقية في قلوب جميع البشر ، تحدوهم إلى شيء من العاطفية ، يخلطونها بشيء من المنطقية ، فيكون الاعتدال والمزاج الأوسط ، وبدافع من هذا التأثير اتخذ الأدب الغربي له شعاراً يستمده من قول (دوستويسفسكي) ... :**

(الجمال سينقذ العالم)

ينقذه من الفلسفة المادية التي قست على الناس وأيبست علاقاتهم ، ومن حروب الاستعمار الجديد والعولمة الأميركية ، ومن كيد بني إسرائيل .

وهو الجمال في أبعاده المطلقة المتنوعة ، وإنما الفن والتجريد والعمارة أفق واحد من آفاقه العديدة ، والأخلاق جمال ، والعدل جمال ، والحرية جمال ، والإخلاص جمال ، والانفتاح جمال ....

● كيف يكون ذلك ؟ ولماذا هذه الثقة بالجمال ؟

الجواب واضح إذا استحضرنا أن الحالة العامة للمجتمع الواسع إنما هي صدىً لحالات أفراده ، والوصف العام إنما هو انعكاس للتربية الفردية ، فإذا التزم الفرد أنماط الجدية والإنتاج وتحريك الذهن ومواصلة التفكير والممارسة الأدبية والتجريدية : فإن شخصيةً إيجابية ستتكون لديه ، وتنمو معرفته ، وينحسم أمر جزء من القضية الاجتماعية يوازي مقداره الفردي ونسبته إلى الكل ،

وبالتتابع وانضمام الأجزاء إلى بعضها وتراكمها يحصل إصلاحٌ منظور يبقى يكبر حتى يرجح .

وهذا هو الذي حصل لشخصية (عفيف البهنسي) الشاعر وخبير الفن الإسلامي والآثار في سورية ، بحيث أوجز قصة التغير الذي طرأ على حياته عبر الشعر والخيال والفن والجماليات في ستة أبيات من الشعر .[١٠]

فـيضُ الـشعورِ أبحراً أثـارني
فانتابني رعشُ القريضِ ، هزّني
وأشــعلَ الأبيــاتَ في قــريحتي
فَصِرتُ بيتاً مـن قـصيدِ دلّـني
على القـوافي والـرويّ والبحـو
رِ للــسحابِ والخيــالِ قــادني
أنا القديمُ في القـريضِ والهـوى
كــمْ مُلــهِمٍ في أبحــرٍ أذابــني
علــى مهــادِ لــوحتي وقِـصتي
قدْ كان لي شعرٌ قـديمٌ صـاغني
وصارَ لـي شـعرٌ جديـدٌ نـابضٌ
وصار لي ديـوانُ رسْـمٍ شـفّني

ومعنى ذلك أنه انتقل من الفراغ إلى الامتلاء ، ومن البطالة إلى الانتاج ، ومن الإفلاس إلى الملكية ، ومن المتاهة إلى الوجهة ..

كل ذلك بالفكر والخيال والانفعال بالجمال ..

ولولا أنه انخدع ببعض عقائد متفلسفة الصوفية في أبيات أخرى لمدحته .

مع أني أعلم براءته من تقصد الابتداع ..

ولكن قصته الموجزة في هذه الأبيات الستة شاهد على كيفية ولادة نزعة (تحريك الحياة) في الفرد ، لتأذن بطلب المثيل ، فيكون الحشد الإصلاحي ..

ولهذا نؤمن نحن أيضاً بأن (الجمال سينقذ العالم) ...

والتعميم لا يمنع التخصيص والتجويد ..

ولذلك نؤمن كذلك بأن (**الجمال الإيماني الإسلامي سيحرك الحياة**) ..!!

▢ التنظير ينبع رؤية شاملة

▢ ويتضح لكل من يعاني هموم الإصلاح : أن هذه الحيثيات التي تمثل الخطوة الأولى في الاستدراك ، والتي أرادت أن تضمن حياة القلوب وعمران الأخلاق والقدرة على تمييز الجمال : يجب أن تتلوها خطوة ثانية ، حركتُها الرئيسة : التحول إلى تقعيد ، وتعليل ، وتحليل ، والنزول عمقاً إلى جذر القضية من أجل استنتاج فكر متناسق يكون هو الأصل الضابط لعملية التغيير ، ويضمن التوازي مع النظر الفلسفي لها ، ومع الإطار التنظيري الذي تحتمه قضية المنهجية ، وأنا أعلم بوجود حساسية مفرطة في أوساط الدعاة تجاه اصطلاح (الفلسفة) ، ولكني استعملته هنا لأنه الأدل على المعنى المقصود الذي يشير إلى اعتبارات شمولية واستيفاء القابليات العقلانية المنطقية في الكشف عن أبعاد قضية الإصلاح .

● ومجاراة لهذا النمط التنظيري كان قراري في تهذيب كتاب (معيد النعم) وحذف زوائده وهوامشه التحقيقية ، لأنّ الصفوة الباقية تمنح المطالع لها صورة شاملة كاملة لأبعاد وتفصيلات الإصلاح الاجتماعي المرتبط بالضرورة بقضية السياسة والإدارة ، مما يعين الدعاة على تدقيق خططهم الإصلاحية المعاصرة ، ولذلك تكون مطالعة هذا التهذيب لنظرية السُبكي مكملة لمطالعة وفهم هذه الرسالة .

● وفي المعايير المنهجية : أن تكوين الصورة الواضحة لقضية ما يتطلب شيئاً من الانفصال عنها ورؤيتها مستقلة عن بُعد متوسط (ابتعد فيه عن تفاصيل المشهد لكي أراه بكل تضاريسه وعلاقاته . ومن المؤكد أن هذا النوع من الابتعاد هو الخطوة الأولى للفهم النقدي الذي يضع الأفكار والنظريات موضع المساءلة ، ويجعل الفهم تملّكاً للمفهوم ، والخطوة الأولى للبعد ـ في هذا السياق ـ موازية لما أشار إليه أرسطو من ضرورة وجود مسافة تمكّننا من إدراك الموضوع الجمالي ، فلا نقترب منه كل الاقتراب ، بما يجعلنا نستغرق في إحدى تفصيلاته ، فلا نلمح غيرها ، أو نفرط في البعد عنه بما يُبهتُ الموضوع المُدرك ، أو ينأى به عن مدى رؤيته في تمامه) ، كما يقول د. جابر عصفور .[11]

● وهذا هو الذي حصل لتاج الدين السُبكي ، فمنصب قاضي القضاة أتاح له الاستقلال والابتعاد النسبي عن جسم الدولة وتفاصيل المشهد الاجتماعي ، فبانت له الصورة وتمكن من النقد وجمع الملاحظات في صورة تقرير شمولي ، وذلك هو الذي يحصل للدعاة اليوم أيضاً ، فإن انتحاءهم جانباً في مجتمع دعوي خاص أتاح لهم شيئاً من العزلة عن المجتمع العام بالرغم من حرصهم على استمرار الاندماج والتفاعل مع الأحداث اليومية ، وهذه العزلة النسبية المحدودة قامت مقام الابتعاد الذي تتطلبه المنهجية ، فوضحت لهم الصورة الاجتماعية ، وسهل عليهم تكوين الموقف النقدي وتطويره إلى برنامج إصلاحي .

● هنا تبدو أهمية التعليل الإيماني لذهاب النِعَم بارتكاب المعاصي ، لأن ذلك هو جزء من التنظير والتقدير الفلسفي ، لأنه لا يستند إلى نص وعقيدة غيبية فقط ، وإنما إلى مراقبة ومحاكمة عقلية أيضاً أفصح عنها قول السبكي .

● ومن القواعد النظرية أيضاً في الحركة الحيوية : أن الأصل في العملية الإصلاحية هو وجود طاقة بمقدار معين مُقَدّر يجب أن نصرفها وندعها تؤثر بشكل من الأشكال ، فمساربها متعددة ، وتختلف خطط صرفها ، ولا بأس في هذا الاختلاف الاجتهادي ، ما دام المصلح يعرف حجم الطاقة التي يراد له

حشدها واستعمالها وأقام الاعتبار لتوفيرها في عالم الواقع ، ومعنى ذلك أننا لا تأسرنا أشكال الإصلاح التي اقترحها السبكي ، ولنا أن نقترح على أنفسنا غيرها ، وفي الوقت الواحد أيضاً : تختلف خطة قطر عن قطر ، لاختلاف الجذور المسببة للخلل .

● وأيضاً : فإنّ من ظواهر الإصلاح : تأخر النتيجة ، وانتظار التراكم ، وقد تتبلد الأحاسيس حيناً ، ثم تنفجر الأشواق إلى الحرية والإصلاح حيناً آخر ، ولا تعتمد القضية على أرقام حسابية فقط ، بل على تأثيرات عاطفية أيضاً .

● **لكنْ لا يعني ذلك هدر شيء ، لأن أمور الحياة تجري وفق قاعدة مطردة من التعاقب والنظام الدائب ، وميزان التكامل يعمل ، إذ هناك (كلٌ) قد تكاملت أجزاؤه ،** كمثل حقيقة الربيع التي اكتشفها عفيف البهنسي فقال :

غاب الشتاءُ مُسرعاً ببرده   إنّ الربيع صادقٌ في وعده

فالذهاب المقدّر : أتاح الورود المؤكد ، وتلك هي سُنّة الحياة ...

والإزاحة العادلة : يتبعها تمكين الثقات ..

□ أجنحة الخيال تنقلنا إلى أرض القياس الفسيحة

□ **ثم في مسيرة الإصلاح خطوة ثالثة تأكيدية للخطوة الثانية ، وكُنْهُها وأصلها : تجويد المنحى التنظيري عبر سعة (الخيال) وركوب أجنحته ،** ذهاباً مع الشاعر السوري حسان الصاري الذي بَهَرهُ أنْ (طار الخيال مجنحاً) نحو المدى البعيد .

● **فمبتدأ وجود كل قضية : قيام تصوُّر لها واضح في نفس صاحبها ، فإنه إن أحاط من خلال الفكر بحدودها وطبائعها وجذورها ومداها : فإن ولادتها في عالم الواقع تكون فرعاً من ذاك التصور ،** حتى لكأن الأمر لازم ، وما هو كذلك ، ولكنّ المراقبة أنبأتنا **أن جودة الخيال تجعل انبعاث الصورة أسلس ،** وذلك هو الذي تمكّن منها الشاعر حامد حسن ، فخاطبه حسان الصاري يمدحه [١٢] ،

لامساً ومدركاً لآثار الأنفاس الشعرية في تشخيص أجزاء الصورة الحيوية ، ثم بعث الحركة فيها ، وأنها :

صورٌ بعثت بها الحياة صادقٌ … من قال : كنت على التصور أقدرا

فهذا نمط من المساهمة في تكوين صورة الحياة الكبيرة من خلال رسم أجزاء فيها ، ومحاولة شحنها بحركات نابضة ، فيجتمع الصغير إلى الصغير ، لتكوين مساحة مميزة ضمن المنظر الأوسع .

● وتتوسع المساحة من خلال التصوير البارع الذي اقترفه حسّان الصاري لخلوة الشاعر حامد حسن :

في كوخه الغافي هناك وحوله
زُمرٌ تصفّق للنجوم لتسمُرا
وتُباكر الإصباحَ قبل بزوغه
وتصيح بالشمس الكسول لتسفُرا

دُنيا من الخَدَر الجميل ومنظرٌ
صلّى الجَمالُ على صَباهُ وكبّرا

فخلوة العاطفيين شِعرية النوع ، فيها مجاراة لسياحات التأمل الذي يحيطه وعيٌ جمالي ينتهي به إلى تسبيح وإقرار بالنِعَم والمنعم .

والمواطأة كاملة من الشاعر محمد عفيفي مطر ، مع زيادة (حبتين إبداع) ..

وذلك حين يصور دور الخيال في تحريك الحياة .. (١٣)

(حسن الرسام .. يلقي فضة باهتة في ذهَب القش ..

ومذراة الخيال .. لم تزل تعلو بنا في أول الرؤية والرؤيا ..

لونٌ دابٌ في لونْ .. ولون فوق لون .. ثم ينفضّ النهار ..)

ينفض النهار ليستلم المذراة جيل آخر يعيد تحريك الحياة ..

على سُنّة الرؤية .. العقل .. والرؤيا .. العاطفية والخيال .. وتظل تدأب الحياة ..

أنت بالخيال والقصد والنية والعزم .. تقترف تحريك الحياة ..

● ويظل شعور الخيالي يتعاظم وينمو ، حتى يوازي المجرّة والسديم ، كما كان شأن عفيف البهنسي في مغامرته الأخرى (١٤) ...

رأيتُ في شعري جوابَ دهشتي
عَرفتُ وجهي فُجأةً في غُربتي
رأيتُ فيها مارداً من الخيالْ
فاحترتُ بينَ واقعي وفِكرتي
هلْ كُنتُ في ماضي الزمانِ شاعراً
وتمتطي صهوَ الخيالِ ريشتي
أمْ كُنتُ في مُستقبلي منارةً
لموكبِ الأشعارِ في مسيرتي
أنا الهلالُ والشموسُ كلُّها
إنّ السديمَ صفحةٌ من قِصتي

● وكأنّ في هذا المقام نوع تحدٍّ للمدرب الإداري الإبداعي إن كان يستطيع تحريك تلامذته إلى شيء من ارتكاب الإبداع دون هذا المفتاح من (الخيال) الجامح المتمرد على الضوابط .. بل هيهات .. وكلهم لم يعلموا بعد أن (الأدب) بما يحوي من شحنات الخيال إنما هو زناد تفجير الإبداع ، لكن مدرستنا ومنهجها في اكتشاف قوانين الحركة الحيوية تعلم ذلك وتوصي به وتمارسه ، والسبب أننا على سُنن الأصالة والاجتهاد ، وهم في محدودية التقليد للغرب ، والمدرب الغربي يعلم أن الأدب يمنح عاطفة قد تتطور إلى إيمان ، لذلك يمنعه عن عمد .

● وأنا أظن أن (الخيال المنفلت) هو المنزلة المنسية في مقامات مدارج السالكين !! ولماذا لا ندعه ينفلت ثم يرجع لنا بغنيمة طالما أن متشابهاته تتكفل بتنقيتها مائة

منزلة في المدارج الصاعدة ميّزها الهروي ، وكلها مُحكمة ، ثم زادها ابن القيّم بياناً ؟

● ومن أرفع القول في الشعراء والخيال ومغامرات العقل ورجفات العاطفة : قول وليد خازندار ، من مصر ، في قصيدته (أبناء الليل) ، وهو يشرح كيف أنهم :

(يذهبون إلى أقاصي الخيال ..
حين لا يرجعون ... يبقى كلامهم ..
في مذاهب الأرض .. في جهاتها ..
الريبة في شوارعها .. الصمت الثقيل بعد كل صيحة ..
كله جاء نذيره في كلامهم ..
لكنها عاليةً ضجّة الأعراس ..
كأنهم بلا جهة .. من كثرة الألم .. كتبتم قلق الجَذر في محابسه ..
النبع الذي لأجل الزنبقة .. يجرب صخرة ..
بذرة في عنادها .. تشق معبراً لمحو السماء ..
الحقول في كلامكم .. للسواعد .. السماء للأجنحة .. الصباح .. لفورة البراعم ..
ما أوسع ما يملك الشعراء .. كأنهم نَبْرٌ .. والزمان كلامُ ..
يتركون علامةً في كل مفترقِ خيال .. يكتبون ما تأخّر .. لعله يجيء ..
كأن في كلامهم مغازل يستدرجون بها خروج الخيط ..
يرسلون هواجسهم طلائع ..
يذهبون إلى الأقصى من الليل .. بالمصابيح الأخيرة ..
ما أقلّ عُدّتهم وأبعدَ أرضهم ؟ لكنهم يصلونها في ومضة ..
لن يمضي بعيداً من كان يعرف دربَ عودته ..
يغادرون إلى الفجر .. ثم يُصبحون من خيوطه ..) (١٥)

□□ فهذه نظرية في تحريك الحياة كاملة ، عبر الرمز. وهي منهج .. وخطة .. وطريقة ..

وإشاراته سديدة .. فإن الرؤى تتراكم لتكون مواعظ ..

ومن فن التحريك أنك تتوزع على مذاهب الأرض ..

لأن الريبة حاصلة في شوارعها ..

واليأس خطأ إذا ناديت فأطبق الصمت .. لأنها طبيعة الحياة ..

فهناك تأمل ، وقد استفززت الكوامن ، فامنحها وقتاً لتنضج وتتشجع ..

ولأن ضجيج المهرجان الكاذب يزعج العقل فيدعه ينتظر .. حتى إذا استوت أشواق الحرية .. تكون أعراسها ..

والنواة الأصيلة مغطاة .. لكنها تمد جذرها لترسخ.. والبرعم يزعجه أن تطلب منه أن ينفتح في غير الربيع .. وإنما يطل الفكر على ساحة الحياة عبر نوافذ الأمل .. رمزه فجر ، يوضح الطريق .. وماء يتدفق .. ينحت الصخرة .. أو يلتف .. وجِرمٌ صغير في مركزه سر الحياة يُسرع نامياً يعلو .. والتحليق حق لمن نبت ريشه .. ومع نسمات الشروق الباردة .. تفور البراعم .. والشعراء قادة ..

الكلام ينتقل عبر الأجيال .. وهم الذين ينشدونه .. ولهم نقد ، وإعادة صياغة .. كلما تاه المحاولون .. وتكون لهم فراسة .. كأنها تخترق الغيب .. فيها إشارة .. وتحديد .. وتسبيب .. على مذهب الهندسة والفن والرقم .. فيصيرون الخلصاء الذين يرعون ولادة الومضة بعد الوقت الحالك .. لكنهم أيضاً أمناء يحرسون المختبر من زور المرايا التي تعكس فقط ، ويستنبطون الومضة من فوتون من مدار ذرّة .

فتكون في أيديهم مصابيح خَلَف يقتفون أثر سَلَف .. وإتقان البداية .. يكفل النهاية .. لذلك يذوبون .. في الفجر الصادق .. ويصبحون هم نبرة صدقه .. لتتحرك الحياة .. حسب نظرية الخازن المصري وليد .

● وكان منه تلعثم تجاوزته ، ووهم متاهة ، فأعنته بالدلالة .

□ وإنما أردت البرهان على أن (حركة الحياة) هي من العلم العام ، ويقاربه مثل الدعاة : الشعراء والأدباء ، فنأخذ وندع ، ونجمع الصواب ، لتستبين المعادلات ، مثل (المعادلات الخازنية) هذه .. !!

☐ نداوة اللغة العربية ترطب يبوسة الحياة الآلية

☐ فعن عمدٍ كانت منهجيتي في (إحياء فقه الدعوة) تهفو نحو الأدب وتولع به ، وهي الخطوة الرابعة في المسيرة الإصلاحية ، ثم هي مَعْلم من معالم استراتيجية التحريك الحيوي ، وباطل هو البرود السائد في الأوساط الدعوية تجاه الأدب ، وأبطل منه ذلك الذهول عنه في مجالات التدريب الإبداعي ومناهج الإعداد القيادي ، ومن شأن فقه التخطيط الدعوي أن ينتبه لهذا النقص فيستدرك عليه بما يناسب ، ويتوجب على ممارستنا الإعلامية أن تلحظ هذا الفصام الذي لا سبب له ، وأن تنعش القلوب بعاطفيات الأدباء ، وتوسع مدارك الفكر الدعوي بخيالات الشعراء ، القديم منهم والمعاصر ، وملتزم الوزن منهم والمتحرر منه .

● إن من الخير لشباب الصحوة أن يسايروني في منحاي الشعري ولغتي الأدبية الجمالية ، فإنما أنا أتعمد ذلك ، وأجعله من تمام المنهجية اللازمة للتحريك، وذلك بسبب الخطر الكامن علينا وعلى الأمة كلها في الهجمتين العارمتين القاسيتين : هجمة الماديات والآليات والكومبيوتر والبرامج والرقميات، وما في ثناياها من جفاف ويبوسة وتنشيف لنداوة الأرواح وإرهاق للنفوس ، مع ما فيها من فوائد ومصالح ، ثم هجمة العولمة السياسية الفكرية الإعلامية التي تتعمد إنهاك ثقافات الأمم وخصوصياتها وترويج نموذج أميركي صرف يدوس على ما سواه ويدمره ، بل ونحن كأمة إسلامية تخوض صراعها مع اليهود نتعرض بصفة أخص لخطر ثالث يستدعيه التطبيع مع إسرائيل ، والجهود متواصلة لتجفيف منابع العاطفيات الجهادية والإمدادات الأخلاقية ، وهذا خطر أقدم زمناً من الخطرين الأولين ، وأنتجت معاهدات الصلح أرهاطاً من أبناء المسلمين ينوبون عن اليهود في إفساد أهلهم وتجهيلهم وتقسية قلوبهم ، ولكل ذلك يجب على تربيتنا الإسلامية ومحاولاتنا الفكرية وممارساتنا المعرفية أن تلجأ للرمز ، والخيال المحروس بالعقيدة وضوابط الإيمان ، ولبلاغة العرب ، ولشعر

العرب الندي الطري ، قديمه وحديثه ومعاصره ، وعلينا أن نتعمد ترويج جماليات اللغة العربية بيننا وخلال مباحثنا مهما كانت جادة وعلمية وإحصائية ، فإن فيها سلاسة مربية ، وإثارات موقظة ، ونغمات مطربة ، وتأجيجات تدأب في إلحاح أن تدفع المتعاطي لها في درب الاستعلاء والنفضات ، وما لم نجعل (الوسيلة اللغوية) و(الترددات الشعرية الأدبية) أصلاً في منهجية تحريك الحياة فإن الذبول الروحي سينال منا المرة بعد المرة ، والحازم يتدارك الخطر ، وقد أفضت التجارب الأولى إلى سلبيات عديدة توجب الانتباه .

● وأنا أخشى أن يكون الإسراف في استعمال الكومبيوتر والتدريب الإداري والإبداعي من خلال تقليد الأسلوب الأمريكي فقط دون أصالة استقلالية كافية : أن يعدم الحاسة الأدبية في الجيل الجديد ، وانعدامها يعدم بالتالي العواطف والصلة بالتراث ، بل بنصوص الإسلام .

وقد لاحظ الفيلسوف الفرنسي المعاصر (فيمارولي) وجود (مأساة وطنية) في فرنسا انعكست على اللغة (وجدية الصحافة وهيئة الأدب) (وذلك في الفترة التي ننتقل خلالها من التعليم الهرمي إلى تعليم جماهيري ، وعندما طردت الألسنية النحو ، فإن عدة أجيال من الشباب الفرنسي حُرمت متعة تحليل النصوص ومسرّة تكوين جملة أو فقرة ، كما حرمت التمييز بين الظرف والحال . إن النصوص المميزة شعراً ونثراً : قد غدت تافهة بسبب علم مزعوم متعال يضعها على نفس المستوى مع حسابات غسالات الثياب .)[١٦].

● وقياس ما يجري في عالمنا العربي على ذلك يُنبي عن تشابه وأزمة مثيلة ، وهي في العالم الإسلامي غير العربي أشد ، ولابد من استدراك ، ولو أن عامة الناس استجابوا لنا في هذا المجال فإنّ عصمة تربوية ستحصل ، وإذا لم يستجب غير الدعاة فإنّ حفظ الذوق اللغوي العربي سيكون سبب ترجيح لهم على غيرهم من منافسيهم ، وتلك نتيجة قَدَرية تحمل هذا الإيجاب ضمن سلبية تخلّف الناس ، وأما إذا أعرض الدعاة أيضاً وتعاملوا باللغة العملية الميكانيكية اليابسة :

فتلك نكبة والعياذ بالله ، لا يتوضح أثرها الهدمي الآن ، ولكنه سيكون شديد الثقل بعد انقراض الجيل القديم الذي ربّته العواطف واللغة ، واستبداد الجيل الجديد الرقمي بالأمور ، وكأنها انحدارات آخر الزمان ماضية في طريقها ، ومن الباطل الشائع الآن الذي يروج له المدربون المقلدون : أن نماشي آخر الصيحات ، ونتحدث بلغة يريدها الجيل الصاعد ، وكأن (قضية الأطْر على الحق) أصبحت منكراً وتخلفاً ، وأن (رؤى المربي) غدت هدراً ، وأن الصواب يكمن في تلبية رغبات المتربي ، على الطريقة الأمريكية المادية .

● وفكاهة كتاب (فلافل وطماطم) بمصر في هذا الموسم تتألم لمثل هذا الحال ، وتراه واقعاً وليس تخوفاً مستقبلياً ، وفي محاوراتها يسأل بائعَ الكتب عن دواوين لفلان من الشعراء ، فيجيبه : مين ده ؟ أنا أول مرة اسمع عنه !! وهنا يتدخل فضولي ويقول : بص حضرتك ، حتلاقي شعر كثير في الكتب دي ، شوف اللي يعجبك !! فيقول صاحبنا : طب إديني اثنين كيلو شعر والنبي يا خويا ، لأ ، لأ ، بلاش الشعر المتفعص اللي هناك ده ، إكرمني بقى علشان أبقى زبونك .. !!!!

● ويعجبني في هذا السياق قول محمد برادة أن : (الأدب إنما هو تطلّع إلى فهم التجربة البشرية بكل تعقيداتها) .

قاله وهو يمهد لعرض رأي الأديب والفيلسوف الفرنسي المعاصر (فيمارولي) من أن واجب المناهج الدراسية اليوم يوجب تدريس الأدب من أجل أن (يستطيع التلميذ أن يأخذ مسافة تجاه الآلة الضخمة المفرخة لانفعالات جاهزة وأعاصير تعاطف عبر حملات تلفزيونية سياسية .) .

ويلاحظ هذا الفيلسوف (أن المدرسة لم يعد لها في المجتمع الراهن نفس الوضعية التي كانت لها منذ نصف قرن اليوم . الأطفال المراهقون هم مسبقاً لهم تربية خارج المدرسة ، عن طريق وسائط الاتصال التي هم مستهلكوها المحظوظون ، وعلى المدرسة أن تصلح ما هدمه ذلك السيل من الصور والضوضاء . عليها أن تسب الأصنام وتبني الانتباه والتركيز).

والقياس يفتح الباب لفهم واجب التربية الدعوية في المرحلة القادمة ، لأن التعويل على المدرسة في هذا المجال لا تشجع القرائن على احتمال حصوله ، والحكومات والجامعات سادرة ، وهي بالتالي محشورة في المسيرة كمثل نقطة كسيرة ، والاعتماد على الذات أولى .

● **لكن تحصل انتفاضات بين الحين والآخر هي بمثابة الاستثناء ، وتبرز في شكل رسمي أو شبه رسمي ، والمفروض أن تتعاون الخطة الدعوية مع أي جهد يوفر بعض الأبعاد الاستراتيجية في تحريك الحياة لصالح الإسلام في عصر العولمة الخطير الذي نعيشه** ، كمثل (مؤتمر لغة الطفل العربي في عصر العولمة) الذي عقد بمقر جامعة الدولة العربية بالقاهرة في شباط ٢٠٠٧ ، فقد تنشأ ظاهرة التلوث اللغوي نتيجة ما يتعرض له مجتمعنا من غزو واختراق لخصوصياته ، وأوصى المؤتمر [١٧] بعدم استعمال العامية في المدارس الابتدائية ، والاهتمام بالمعلمين ، واعتماد العربية لبرامج الأطفال في وسائل الإعلام ، وكل ذلك يلتقي مع النظر الدعوي في حفظ الأصالة ونقاء الشخصية .

ومثاله أيضاً [١٨] مؤتمر حوار الحضارات بجامعة القاهرة برئاسة الدكتورة نادية لطفي ، والذي انتهى إلى ضرورة صياغة مشروع عربي موحد يعتمد على استقلال القرار ومواجهة التحيّز الغربي المسيطر على مقاليد الحياة في العالم أجمع عبر نموذج مادي يفتقر لأية أصول حضارية ، وضرورة (وعي عربي بخطورة السيطرة الغربية على المفاهيم السائدة في منطقة التواجد الإسرائيلي وسواد مشروع العولمة) ، وكان د. عبد الوهاب المسيري من جملة المحاضرين ، ولفت النظر إلى (أن التدخل الأمريكي موجود في كل بقاع الأرض لإجهاض أية عملية ديمقراطية سليمة ، لافتاً إلى نموذج حماس والإخوان في مصر وفلسطين).

□ **فبهذه التوجهات الأربعة : الأخلاقية ، والتنظيرية ، والخيالية ، واللغوية الأدبية : يرجى للعملية الإصلاحية الاجتماعية أن تكون أنفذ ، بل هي شروط**

ولوازم ، ويعرف فقهاء التخطيط المقدار العظيم من المنطق الكامن فيها ، وقد تختلف الأمثلة والشواهد ، ولكن أصولها الموضوعية تبقى فوق الخلاف .

□ المؤمن اللبيب يستشعر أثقال الوظيفة

□ وكان الذي أثار كل هذا الكلام الطويل : أسلوب الفقهاء في وصف طرائق إتقان المسلم المكلّف بوظيفة ، لوظيفته ، أو صاحب المهنة ، لمهنته ، وقد كان محور المعاني يدور حول استشعار المسؤولية ، وتجويد الأداء ، والنظر لمصالح الناس وحقوق العباد بالرعاية ، وهذه حيثيات سهلة في اللسان ، لكنها عظيمة في الميزان الدنيوي والميزان الأخروي ، والتقي الذي يخاف الله يوجل ، ويود أن يخرج منها كفافاً لا له ولا عليه ، ويحسّ بثقل الحمل والتكليف ، حتى لتوسوس له نفسه بترك وظيفته أو اعتزال مهنته إلى شيء أيسر .

فذلك هو سؤال عمر بن الخطاب ، وجواب سلمان الفارسي ، رضي الله عنهما ، وما فيهما من فقه متكامل ، حين قال عمر :

(من يأخذها بما فيها ؟ ... يعني الخلافة .

فقال سلمان : من سَلَتَ الله أنفه . أي جدعه وقطعه .) (١٩)

فعمر يسأل سؤالاً تعجيزياً ، فمن هذا الذي يريد قيادة أمة ودولة وهو غير مكافىء؟ إلا أن يكون قبيحاً في نواياه وأخلاقه وعقيدته وسيرته ، كقبح وجه بلا أنف .

وهذا الميزان إذا صدق على إمارة المؤمنين كلهم : فإنه يصدق أيضاً على إمارات كثيرة دونها ، بمقدار يتناسب مع ما فيها من تبعات ومسؤولية .

● وذات يوم كنت أمشي في أحد شوارع دمشق ، وإذا بجنازة تمر من أمامي ، ورجل معها ينادي بمكبر الصوت : (سامحوه ، الله يسامحكم) ويكررها ، بنبرة توسل واستعطاف ، وقال مرة (لخاطر الله سامحوه) ، فصدمني المنظر ، وظننتُ أن الميت صاحب هفوات وخطايا كبيرة ، ولذلك يكون هذا التوسل المبالغ فيه ، وتصورتُ جنازتي وأنها ستكون على هذه الهيئة ، فرقّ قلبي ، ودمعت عيني ،

وهزني المنظر هزاً عنيفاً ، ونفضني ، ورأيت ساعتها أن الدنيا لا تسوى فلسين أحمرين ، واحتقرت السمعة والجاه والترف ، وصرت لا أفقه غير (سامحوه الله يسامحكم) ، حتى سألت فقيل لي : إنّ ذلك هو عُرف أهل دمشق في تشييع الموتى ، فهدأتْ نفسي قليلاً ، ولكن من بعد ما تلقنتُ درساً بليغاً ، وازدريت البهارج ، وقام عندي واعظ ذاتي يريني تفاهة الباطل والعدوان وأكل حقوق الآخرين ، أو التورط في ديون ، بحيث يضطر الأهل للتوسل إلى الناس أن يبذلوا لميتهم العفو والمسامحة ، وفي الحادثة تلقين لكل ذي قلب يرجو النجاة ، ولكل ذي منصب يتأول استعمال الشدة فيكرهه الناس ، أو لكل ذي صدارة دعوية وهو لا يتقن عمله ، ولا يصل إلى درجة الاجتهاد واستفراغ الوُسْع في الأداء ، فيلومه الدعاة وينتقدونه ، ويرى ورثته ساعة تشييعه طلب المسامحة لخاطر الله !!

□ تربية الذات بحلاوة اللذّات

□ ولكن هذا الزهد إن كان حقاً ويصح وصفه لمعيب وكسول ومضياع للحقوق : فإنه يتحول إلى صفةٍ مرجوحة ومجرد وسوسة ، لأنها تنظر إلى القضية من جانب واحد ، هو جانب العقوبة الربانية لمن يرتكب التقصير ، وإنما هناك في الجهة المقابلة أجر وثواب للمحسن المكافئ المعطاء ، بحيث تنتقل القضية إلى حكم وجوب قبول المنصب إذا لم يسد أحد غيره مسدّه ، وذلك هو الذي حمل عمر رضي الله عنه على قبول الخلافة ، وهو السبب الكامن وراء ورطات الزهاد والفقهاء بالمناصب ، وإذا كنا قد استحسنّا السرد السلبي الذي اقترفه السبكي لعيوب طبقات الموظفين والأجناد وأهل المهن : فإن العدل والمنطق يقتضي أن نفتح أبواباً من الإصلاح الإيجابي يقابله ، وهي عملية عُظمى تستدعي تشمير الرجال عن سواعدهم ، وأن يقبلوا التحدي ، وأن يهضموا حقوق النفس ، ويفوضوا الأمور إلى الله تعالى حتى ولو غمزهم غامز لامز ، لأن الحياة من شأنها الحركة ، وإذا لم يحركها الثقات : استبد بها المنحرفون ..!!

● بل وهناك ثمة دافع نفسي يليق أن نستجيب له مهما سيطرت علينا نوايا الزهد وملنا إلى السلامة وقلة المخاطرة ، ويتجلى هذا الدافع في أن المؤمن الثقة الذي يغرس ويبذل ويرعى : يحب أن يستمتع بثمرات غرسه ، وأن يذوق الحلاوة ..!

وكان عبد القادر الكيلاني إذا نجح في تخريج طالب علم ورآه أهلاً لأداء الواجب الشرعي : يقول لنفسه : أحقاً كان ذلك ؟ وهل تخرج هذا من بين يديّ هاتين ؟ ويفرح وتحلّق روحه .

وأنبأنا الظريف اللطيف (عبده الشنهوري) أن الزارع يتمنى أن يذوق الثمرة ، وأن هذه اللفتة النفسية من محركات الحياة ...

يا نخل طال وسما فوق ..

ولا كانش طولك بلا إحنا

أنا والفقارة على شوق

ندوقوا مرّة بَلَحنا

فنحن سقينا نخلنا ، وأظلنا مداراته ، والله الواهب .

فلنا أن نحلم بحلاوة البلح على أطراف ألسنتنا ، ولا يحتكره عنا ظالم .

فنحن .. والحياة .. وجودان متكاملان .. متلازمان ..

ونحن عُمّار الأرض... فلنا الحياة .. وبالمبادأة .. والاقتحام .. تصير لنا الحياة ..

□ الواهمون ... يرعون الغموض

□ ونقطة المركز في القضية الإصلاحية : أن الانحراف ما زال يدأب ويتجدد في كل جيل ، وأشكال العيوب القديمة ما زالت سائدة ، بل الأمر إلى انحدار وازدياد وابتكار لأنواع من السوء ، وقسوة القلوب في عصر المدنية العلمية الآلية والالكترونية الرقمية بدأت تنتج علاقات باردة ، وأخلاقيات رديئة ، ولذلك

يجب أن تتجدد في كل جيل عملية الإصلاح ، ويزخم أقوى يكافئ الواقع المنحرف الذي يتضاعف هبوطه كل عقد أو عقدين من الزمن .

● وأهل الغموض هناك ... فيجب أن نكون نحن أهل الوضوح هنا .

وقد أدرك قاسم حداد من البحرين أن (الفارغ من الدلالات : كلما بالغ في طرح صوته ضاجاً ، مجلجلاً ، يجهر بجرأة خطابه الفجّ : كلما شغر به المكان ، وفرغت التجربة من أخباره ، وخرج عن فكرة العمل . كلما تكاثر بالكلام : شحّت دلالاته ، وشحُبَ المعنى .)[٢٠].

● وأصبح ازدواج الشخصية في الناس هو الأصل ، وصارت صورة القلق سارية ، فاضطربت حركة الحياة ، وهي حالة حيّرت السوري محمد كناسي فراح يتساءل و يذم هَول الضياع :

(متى .. أيها الإنسان .. تنقلب على الوحش الذي يسكنك ؟

هو يعمل .. أنا أمارس الكسل ..!

هو يعادي الحزن .. أنا أبكي بلا سبب .. هو يكره ما أحب .. أنا أحب ما يكره .

لا أعرف إن كنتُ أكرهه .. لا يعرف إن كان يحبني ..

لكنه أنا ..... وأنا هو .. من هذا الشريد .... ؟ .)[٢١].

● أما المؤمن فقد تجاوز ذلك إلى طمأنينة ، وأصبح ساكن القلب ..! وإذا لم يكن هذا الذهول هو (النقمة العقابية) التي رصدها السُبكي ، فماذا تكون إذن ؟ وهل يرتقي أحد إلى درجة المؤمن المطيع لربه المنفّذ لأوامر شرعه في تحديد البوصلة والوجهة ومعرفة المقصد قبل الخطو ..؟

● ومع كل ذلك : فإن العيوب الفردية التي شوشت على الناس استقرارهم النفسي ورفعت عنهم البركة والنعمة : تبقى أقل شأناً من العيوب العامة التي تصيب المجتمع كله ، فيمرض مرضاً جماعياً بعللٍ أنكى وأشد نخراً وتسبيباً لأنواع العطب .

وفي تعريف موجز بكتاب طارق حجي (تأملات في العقل المصري) تجبهنا سلبيات من العيار الثقيل الوطأة ، وحَمَلَتْه المنهجية العلمية نحو الصراحة في (التعريض لعيوب التفكير المصري المعاصر ، مثل تقلّص السماحة ، والمغالاة في مدح الذات ، ثقافة الكلام الكبير ، الإقامة في الماضي ، ضيق الصدر بالنقد ، تمجيد الفرد ، وغياب العقل النقدي).[٢٢]

وهذه مجرد أمثلة وعينة نموذجية لقليل من كثير في عموم العقلية العربية المعاصرة ، ونجد أشكالاً أخرى من العيوب في أقطار أخرى ، ثم في عقلية الشعوب الإسلامية غير العربية .

● ثم إن أمر الحياة أوسع من أن تحصره النشاطات العقلية ، بل العمل العقلي إنما هو محرك واحد من محركات الحياة ، ومعنى ذلك وجوب رصد الأحوال الأخلاقية ، والبُنية العاطفية ، والنشاطات الاقتصادية والسياسية ، وقضايا الحروب والثورات ، لنكتشف حقائق عن سعة البلوى العامة في الأمة وحجم الانحراف الأكبر .

● لا لنوسعها مسبّة ، فإن المسبة والتقريع إذا تجردا عن المعالجة صارا من جملة العيوب والخلل ، ولكن لكي نرسم أمام الدعاة والأحزاب والجامعات والمؤسسات البحثية والحكومات والمنظمات الإقليمية : خارطة الإصلاح والاستدراك الواعي الموافق لمراد الله وشرعه ، ولكي نعين خطط التنمية على إضافة الخصوصية الإسلامية إلى مجرد النظر التخطيطي المستورد من الغرب والأمم الأخرى ، فإنّ أمورنا لا تعالجها أموال فقط وصناعات وعلوم ومناهج تدريب ، وإنما يلزمها أيضاً طِب قلوب ، وتوحيد ، وعبادات ، وأخلاق ، وعواطف ، ولغة ، وتحليقات روحية ، وأنماط منهجية ، وعدل ، وحرية ، ومنح حقوق ، وسيادة قانون ... وعلم باستراتيجيات الحركة الحيوية .

● وهذا العلم الاستراتيجي ربما توجد الآن صورته الزائفة لا حقيقته ، وفي الساحة مشاريع موهومة تزيد الطين بلّة ، وهي جملة الصيحات الخطأ ، والمناهج

الحالمة ، والأحزاب التي تعبّر عن تشنجات وردود فعل لا يوجهها فكر وتنظير وتخطيط ، وما التطاول في البنيان مع تضييع التنمية غير عنوان لتقصير عريض .

● وقد فضح محمد علي عزب كل ذلك ، ورأى في حياتنا المعاصرة فكاهة ..

(تسمع آخر نكتة ...!

دي اللي إنتَ فاكرها سفينة نوح .. طِلعت خشبة مسرح ..

كانت أصلاً ... خشبة نعش .. التُربي زهق ورماها ..

من بعد الناس فـِ بلدنا ما بقوا عايشين .. أموات .) [٢٣].

فكم من تيار يقدم نفسه لقيادة الحياة ..

أو مشروع تنمية لينقذنا كما أنقذت سفينة نوح المخلوقات ..

ثم يتبين أنه ليس ثمّ غير ... تمثيليات .. وأداء مسرحي ..

أو ... مجرد قصة إحباط .. ونفوس مُرهَقة ساءها التخلّف ..

كما ساءت الدّفان حركة الناس وهم أموات بلا قلوب..

فكسدت مهنته .. فكسر النعوش .. يأساً واعتراضاً ..

● ولكن المؤمن فقط هو الذي يستمد من الفقهاء النظر ، فيصبر على الناس ، وتتضح له هندسة الإصلاح ، فيشرع بملأ فراغ القلوب ..

والدعوة الإسلامية فقط هي التي يوجهها دين وفكر وتخطيط أصيل ..

وهي فقط .. التي تعرف أسرار تحريك الحياة .. وتتقن التربية ۞

---

(١) العقد الفريد ٣/ ٩٥ طبعة العلمية .

(٢) مُعيد النعم ومبيد النِقَم/ ٤١ .

(٣)ديوان (أناشيد الوطن)/ ١٧ .

(٤) جريدة أخبار الأدب المصرية ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٥)ملحق جريدة (الثورة) السورية ١٣/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٦) جريدة الأسبوع الأدبي السورية ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(٧) (٨) أخبار الأدب ١١/ ٣/ ٢٠٠٧ ، ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٩) معيد النعم/ ١٠٣ .

(١٠) أناشيد الوطن/ ٦٩ .

(١١) مجلة العربي عدد ٥٧٩ .

(١٢) جريدة الأسبوع الأدبي ١٠/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(١٣) مجلة (أدب ونقد) عدد ٢٥٨ شباط ٢٠٠٧ .

(١٤) ديوان (أبيات على صفحة الجبين)/ ٦ .

(١٥) أخبار الأدب ١٨/ ٢/ ٢٠٠٧ مع حذف كثير .

(١٦) أخبار الأدب ١١/ ٣/ ٢٠٠٧ .

(١٧) أخبار الأدب ٢٥/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(١٨)

(١٩) لسان العرب ٢/ ١٧٨ .

(٢٠) مجلة العربي عدد ٥٨٠ .

(٢١) جريد البعث السورية ١١/ ٢/ ٢٠٠٧ .

(٢٢)(٢٣) أخبار الأدب ٤/ ٣/ ٢٠٠٧ ، ١١/ ٣/ ٢٠٠٧ .